غزل العقـــاد

للأستاذ سيد قطب

— ٢٠ —

كل ما استعرضته حتى الآن من خصائص غزل العقاد ، جائز أن يشركه فيه سواه ، فى الفكرة الخاصة أو فى الاتجاه العام ، وهى على ندرتها فى عالم الشعراء الكبار ، وتفرد العقاد بكثير منها فى الشعر العربى كله كما بينت ذلك بوضوح ، ليست ملكا خاصا له بمقدار اختصاصه فيما أفرد له اليوم هذا المقال من « خصوصيات » !

الغزل غرض مباح لجميع الشعراء ، ومذاهب الحس والتعبير فيه ملك كذلك للجميع ، إلا أن العقاد وحده هو الذى يقول ما سأعرضه فى هذا المقال الأخير ، ولن يشركه أحد فى اتجاهه هذا ، ولا فى فكراته أو تعبيره ، لأنه فيه هو « العقاد » بشخصه ولحمه ودمه ، لا سواه من الأناسى — قبل الشعراء — وهو هنا فى تقاطيعه وتقاسيمه وسحنته التى يلوح فيها ، ويتميز بها :

غنى عنده مايعطيه

فى قصيدة « تبسم » بالجزء الثانى من الديوان صفحة ١٧٢ يقول لحبيبه

فلا تبتعد عنى فانك راجع ... متى تبتعد عنى بصفقة خاسر
ومن لك بالقلب الذى أنت مبصر ... به كل إعجاز لحسنك باهر
تراه عصيا — إن نأيت — على الرضا
ولا قلب أرضى منه إن كنت زائرى
وفى الناس مطوى الضلوع على الشجا
ولا مثل شجوى بين باد وحاضر
إذا شاركونى فى هواك فما لهم ... سرورى بما أصفيتهم وتباشرى

وفى هذه الأبيات يشخص العقاد الشاعر بأن عنده ما يعطيه وأن حبيبه سيخسر حين يفقده ؛ الشاعر بتفرده فى سروره وشجوه على السواء ، وكأنما هو من عنصر غير عنصر البشر الذين يعج بهم الكون ، وتهفو قلوبهم إلى هذا الحبيب ، ولو شاركوه فى هواه ، فمن لهم بقلبه فى شجوه ورضاه؟

وغير العقاد يقولون لأحبائهم : إنكم لن تجدوا إخلاصاً كإخلاصنا ، ولا تضحية فى سبيلكم كتضحيتنا . . . الخ مذاهب القول فى هذا الباب ، ولكن العقاد لا يعنى شيئاً من هذا ، إنما يعنى أن قلبه فريد فى نوعه لا فى مظاهر إحساسه كالحب والاخلاص والتضحية وما إليها ، وأنه ممتاز حتى فى « شجوه » وأن شجوه الممتاز هذا يُغليه ويرتفع به ، كالسرور الممتاز على السواء !

رضوه صارمة

يرضى المحبون ويغضبون ، ويقولون فى الرضا والغضب ما يقولون ، ويبقى العقاد غضبه ورضاه ، متميزاً بطابعه الذى لا ينساه . وفيما مضى رأى القارئ كيف يرضى العقاد فى كثير من الأمثلة مثل « سنة جديدة » و « عامنا » و « قبلة بغير تقبيل » وسواها . فمن أراد أن يعرف كيف يغضب العقاد وكيف يكون صارماً باتا فى هذا الغضب ، فليقرأ : « الهجر الصادق » :

تجشم فيك القلب ما ليس بمذنب ... أما آن لى منك النجاء المحبب ؟
فهجرا فهذا القيد قد طال عهده ... أليس لقلبى غير حبك مذهب ؟
هجرتك هجر المرء أسود سالخا ... يعج حماما كيفما يتقلب
هوى الموت أحلى من هواك لأنه ... هوى صادق الميعاد لا يتذبذب
وما كنت فتانا ولكن فتنتنى ... بما صنعت عينى من الحسن أعجب
فلا تغترر منى بما قد عهدته ... لدن كنت أعفو إذ تسىء وتذنب
فما كل حين يغلب الحبُّ ربَّه ... ولا الصبر فى كل المواطن يغلب
لتظلم ليال كان دمعى شرابها ... فحسب الليالى دمع من لم يجربوا
أنا اليوم فى هجرى على الكره صادق
وقد كنت فى هجرى على الكره أكذب

هكذا فى نفس واحد ، وفى نفثة واحدة ، صرامة قاسية ، هى طابع العقاد حين يكره ، وحين تسأم نفسه طول الاساءة ، وجفاف الصلات ، وحين يجنح إلى اختيار الهجر بعد اليقين والاعتزام

وليس هو هكذا فى الغزل وحده ، فهو بعينه فى الصداقة وفى السياسة وفى الآراء والمعتقدات فى شتى مناحى الحياة : ضربة قاصمة ، لا رجعة بعدها ولا اتصال

اليقظة والوعى الفنى والتأمل الفلسفى

ولقد كنت أفردت مقالا للحديث عن هذا العنوان ، وضربت من الأمثلة ما فيه الكفاية . ولكننى هنا ماض على نهجى للغرض الذى صدرت به هذه المقالة من استعراض « الخصوصية » المعبرة عن شخص العقاد ، لا عن مناحى تفكيره واتجاهاته

فمن اليقظة التى هى جزء من شخصه قوله تحت عنوان « الهزيمة المرغوبة »

أريد التى ألقى سلاحى وجنتى ... إليها وألقاها من البأس أعزلا
وأطرح أعباء الجهاد وهمه ... لدى تدميها مفمض العين مرسلا
وأنت إذا أقبلت أقبلت جحفلا ... وجردت أسيافا وشيدت معقلا
فان تهزمينى فاهزمى عن بصيرة ... مريداً لأسباب الهزيمة مقبلا

فها هنا رجل يعرف إحساسه ، ويدرك قواه وقوى حبيبته ، ولكنه يجتمع إلى الفطرة ، ويريد المرأة ليلقى إليها سلاحه رجفته ويلقاها أعزل من كل قوة ، لتحتضنه كالأم الرءوم ، بعد ما ضاق ذرعاً بالجلاد والكفاح ، فآوى إلى الهزيمة المرغوبة وهو قوى عالم بقواه !

ومن التأمل الفلسفى أن ينظر إلى حبيبه الغرير ، الذى لايدرك فتنة سحره فكأنما هو منها محروم ، بينما العقاد قد فطن إلى هذه الفتنة وقطف من ثمارها وعرف الدنيا على ضوئها ، وتملى الحياة على نورها ، فعاد مالكا لها ، وصاحبها محروم منها !

يا ساحراً فاتته فتنة سحره ... وتنقبت عن لحظه العسّاف
نجنى الثمار من القفار بفتنه ... وتصيبُه منها التراب السافى
ترنى لسحرك أم تجل فعاله ؟ ... ما أجدر المحروم بالتعطاف !
سحر خصصت به وأنت حُرمته ... حرمان لا حرج ولا متلاف

لا يقول هذا إلا العقاد ، المتأمل فى كل لفتة ولحة ، الواعى للظواهر والبواطن ، المعنىّ بالمرافقات والمفارقات فى عالم المعانى والاحساس

صوت الفطرة

وصوت الفطرة السليمة مسموع فى كل ما يكتب العقاد ، ولكنه فى الأبيات التى نعتبها هنا مكشوف ناصع ، لا يحتاج إلى الكشف والبيان ، ولا ينسرب فى الرموز والألوان ، وهو — مع هذا — صوت فطرة العقاد الخاصة به ، وإن كانت قبساً من الفطرة الخالدة

يقول بعنوان « عيوب المحب » :

لا تعدّى على عيباً فانى ... لك كلى محاسنى وعيوبى
وعيوب المحب أولى بعطف ... من كمال فيه وحسن وطيب
هى كالطفلة الشقيــة تاقى ... من حنان الآباء أوفى نصيب

فليس التأمل وليست الدراسة النفسية وحدها يوحيان بهذا المقال ، إنما هو الشعور الفطرى الصادق قبلهما يوجه النفس هذا التوجيه . يعرف ذلك الآباء المشغوفون من لدن الحياة بالأبنــاء ، والبنات الأشقياء والشواذ ، لأن هؤلاء أحوج للرعاية فى منطق الحياة ! ويعرفه كذلك المحبون الذين يزيد شغفهم بمحبياتهم ماينفر سواهم الخليين من أقوال وتصرفات . ويعرف العقاد هذا فيطل بوجهه من خلاله وكأنه وشاحه الخاص ، الذى لم يفطن إليه سواه الملك بالمعرفة

الملك بالمعرفة

وبعد فهذا فن وحده ، واتجاه فى الاحساس غريب : محب ينقضى ما بينه وبين حبيبته من حب ومن لقــاء واتصال وأخذ وعطاء ، ويفصل بينهما فاصل من هجر مرير بعد شك دام ويقين أليم حدثناك عنهما فى كلمة سابقة ، ثم يحس فى خلال هذا كله أنه مايزال مالكا لهذه الفتاة ، مالكا لها إلى الأبد ، لايملكها سواه أبداً ، ولا تفلت من بيده أبداً — لماذا ؟ لأنه يعرفها بكل ما فيها ، ولأن غيره لن يعرفها مثله ، ولن يطلع منها على ما اطلع هو ، وهى له وحده ، لأن صفحتها مفتوحة أمامه يقرؤها بلا مفسر وبلا منظار ، ولأن أحداً لن يحبها حبــه أو يكرهها كرهه ، بل لأن أحداً لا يُدريها ازدراءه !

أ لقاءٌ أم لات حيــن لقاء ... وسلام أم تلك حرب عداء ؟
وفراق تجدد العتبَ فيه ... يوم تخلو على مهاد الصفاء ؟
أم فراق على الحياة طويل ... كفراق الردى بغير انتهاء ؟
أنا مابــين هاتف ونذير ... ذاهب السمع إثر كل دعاء
هاتف فى الضمير أن ليس هذا ... آخر العهد فاعتصم بالرجاء
ونذير بأنهــا غضبة العمر ... وعقــبى مودة الأصفياء
ليت عاماً من الحياة تقضّــى ... لأرى فى غد بعيد القضاء

وأرى الخير لايطول انتظاري وأرى الشر لايطول عنائي

* * *

لالعمري بل يكذب الخير والـ شر وتعفو معالم الأنباء
ويقول الزمان قولا فإني مرسل قوله مع الأصداء :
أنتِ لي أنذر الزمان بِشرٍّ أم مضي هاتفاً مع البشراء !
أنت لي أضمرت نيّاتك حباً أم طوت سرها على البغضاء !
— إن لي فيك يابنية حقـــاً فوق حق الهوى وحق الدماء
مزجت في قرارة الحب نفـ ساناً وسيطت أيامنا في وعاء
وترائيت لي بقلب ولب من وراء الحياء والكبرياء
من من الناس قـد تذوق منـك الـ ـبش صفواً والعيش جم الشقـاء ؟
من من الناس قد توسم فيك الـ ـحسن نوراً والحسن من ظلما ؟
من من الناس قد أحبك حبيـــك ومن منهم ازدراك ازدرائي
— من من الناس قد رأى خير مافيـــك وأخفى مافيك من أدواء ؟
من جمال ومن ذكاء ومن غد ر ومن صدق شيمة ووفاء ؟
هذه أنت لاتزالين لي وحد ي — جميعاً — لاتظهرين لراء
يعرف العارفون منك لماماً بعض ماقد عرفت من سيماء
فلهم منك صـــورة وأحا ديث ولي منك لب ذاك الطلاء
هـــذه أنت لافؤادك خاف عن عياني ولا وداداك ناء
إن يطل بيننا النوى فالتلاقي من ندائي بموقع الاصغاء
ولنا في صحيفة الدهر غيب سيعيد انتهاءنا لابتـــداء

وكنت أود أن أعقب بشيء على هذه القطعة ، ولكنها ليست بحاجة إلى الشرح ، وإن كانت بحاجة إلى حس غني مرهف يتلهمها بمجرد قراءتها . فمن كان له هذا الحس فما هو بحاجة إلى بيان ، ومن لم يكن له ، فما أنا ببالغ شيئا في إفهامه

وإنني لمفتون بهذه القصيدة ، أكاد لفتنتي بها ، ولسمو لقلب الشاعر فيها ، أفضلها على كل غزل العقاد !

* * *

والآن أختم حديثي عن « غزل العقاد » وقد طالت عنايتي بهذا الضرب من شعره لأسباب سأشرحها في الكلمة الختامية بعد الحديث عن « أسلوب العقاد » في مقال قال

« حلوان »

سيد قطب

مائة صورة من الحياة

للأستاذ علي الطنطاوي

٩ — قارئ

كنت عند صديق لي يبيع الصحف والمجلات أجوز به كل يوم ، فجاءه رجل محترم ، عليه سيما الوقار ومعه نسخة من مجلة الرسالة فقال له :

— لقد أخذت هذه المجلة أمس من عندك ، وقد بدا لي فيها ، أفلاتحب أن تأخذ قرشاً (١) وتعطيني بها الرواية؟ فنظر فيها البائع فإذا هي جديدة سالمة ، ولم ير في طلب الرجل شيئاً فقبل وأعطاه الرواية فأخذها شاكراً . فلما كان من الغد عاد والرواية معه فقال :

— هذه هي مجلة الرواية التي أخذتها منك أمس ، أفتأخذ قرشاً وتعطيني (الدنيا) ؟

— قال : نعم ، وأخذ القرش والرواية وأعطاه الدنيا ، فمضى شاكراً . فلما كان من الغد عاد فقال له :

— أتحب أن تأخذ هذه المجلة وتعطيني بها (الحرب العظمى) وعدداً من جريدة يومية ؟

— قال : نعم وأعطاه ... فلما كان غد عاد فقال :

— أتشتري مني (الحرب العظمى) بنصف ثمنها ؟

— قال : نعم ، وأعطاه (نصف فرنك) فأخذه ومضى شاكراً

فقلت لصديقي البائع :

— لقد شهدت من صبرك على هذا الرجل عجباً ؟ أفلا طردته أو أنبته واسترحت منه ؟

— قال : ومن أبيع إذا طردت مثل هذا ؟ إن أمثال هذا هم (القراء) في هذا البلد ، أفتعجب بعدُ أن كان يباع من مجلة (كذا) مثلا خمسون عدداً في دمشق كلها ؟

١٠ — الحمام

رأيت في سينما روكسي ، رجلاً بلحية وقفطان ، ولكنه حاسر الرأس ، غير مرتد رداء ، ولا متخذ جبة ، فعجبت منه وجعلت ألحظه ، وأنكر صنيعه من السينما ، حتى إذا انقضى التمثيل

(١) مع العلم بأن ثمن الرسالة في دمشق (١٢) قرشاً سوريا